جامعة كربلاء
كلية العلوم الإسلامية
دراسات اسلامية معاصرة / العدد 39 / آذار 2024

مواضعُ الحِجاج في بنيةِ أحاديثِ مناقِب الإمامِ عليّ (عليه السلام)

The positions of pilgrims in the structure of the hadiths on the virtues of Imam Ali (peace be upon him)

أ.د. شعلان عبد علي اليساري
Prof. Dr. Shaalan Abdul Ali Al-Yasari
جامعة بابل / كليّة التربيّة للعلوم الإنسانيّة
University Of Babylon / College of Education for Humanities

م. د. فضاء ذياب غليّم
Lecturer. Dr .Dhiab Ghalim space
جامعة بابل / كليّة التربيّة للعلوم الإنسانيّة
University Of Babylon / College of Education for Humanities

الكلمات المفتاحيّة: الخطاب المناقبي، الإمام علي، مواضع الحجاج، الكم، الكيف، الترتيب، الجوهر
Keywords: moral discourse, Imam Ali, places of pilgrims, quantity, quality, arrangement, essence.

الملخّص:

هذه محاولةٌ لتفكيكِ بِنيةِ نصوصِ الخطابِ النبويّ المناقِبِي– المتمثّل في أحاديث النبيّ (صلّى اللهُ عليهِ وآلِه) في مناقِب الإمامِ عليّ (عليه السلام)؛ للكشفِ عن المواضع والمنطلقاتِ الحجاجيّة فيها، والدلالاتِ المتولّدة من ذلك، والمقاصدِ الحِجاجيّةِ وراءَ إنشاءِ الخطابِ بها؛ لذا سيعتمدُ البحثُ نظرياتِ بيرلمان وتيتيكا– مركزًا على أطروحات بيرلمان أكثر– في دراسةِ نصوصِ خِطابِ المناقِبِ العلويّةِ؛ لأنّها من أغنى النظريات الحِجاجيّة وأوسعها، ومن شأنِ ذلك أنْ يُغنِيَ الدراسةَ ويُتيحَ تقليبَ النظرِ فيها من زوايا مختلفةٍ، للخروجِ برؤيةٍ شاملةٍ وواضحةٍ عن كيفيّةِ تقديمِ النبيّ الأعظم (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ)، الإمامَ عليّ (عليه السلام)، في خطاباتِه لجمهورِ المسلمينَ.

Abstract:

This is an attempt to dismantle the structure of the texts of the moral discourse of the Prophet Mohammad (may God bless him and his family) represented in his hadiths about the morals of Imam Ali (peace be upon him); To reveal the argumentative positions and premises therin , the semantics generated by that, and the argumentative purposes behind the establishment of the discourse in them; Therefore, the research will rely on the theories of Perelman and Tetica - focusing on more of Perelman's theses - in studying the texts of the discourse of the 'Alawite virtues; Because it is one of the richest and broadest argumentation theories , and this would enrich the study and allow for a review of it in different ways , in order to come up with a comprehensive and clear vision of how the Greatest Prophet (may God bless him and his family) presented Imam Ali to the Muslims (peace be upon him).

المقدّمة

يَسعى هذا البحثُ إلى إيجاد مدخلٍ مناسبٍ لتحليل الخِطاب النبويّ في أحاديث المناقِب العلويّة، يتمثّلُ في النَّظر إليها بوصفها حِجَاجًا، انطلاقًا من السِّمات الخاصّة للأحاديث النبويّة (الخطاب النبويّ) عامّةً، وأحاديث المناقِب منها خاصّة؛ فالخطابُ النبويّ نصٌّ دينيٌّ مُقدّسٌ، ذو وظيفةٍ دينيّةٍ إبلاغيّةٍ، تشريعيّةٍ، هدايتيّةٍ، يقتضيها مقامُ النُّبوّةِ والرّسالةِ، فيستدعي ذلك ضرورةً أنْ يتوسّلَ بأساليبِ الإقناع، وطرائقِ التأثير، ورصفِ الحُجَج؛ لتحقيقِ تلكَ الوظيفة. لا يعني ذلك أنّ الاقناعَ، والحِجَاجَ هما غايتانِ في الخِطاب النبويّ، بل هما بمنزلةِ الوسيلةِ والسبيل لتحقيقِ التّعليمِ والتّزكيةِ، وتمكينِ مبادئ الرسالةِ السماويّةِ من القلوب، لتجدَ طريقَها إلى السّلوك، وبعبارةٍ أخرى هما غايةٌ وسطيةٌ، أو وسيلةٌ بين الغايةِ التعليميّةِ التربويّةِ التشريعيّةِ، وضماناتِ تجسدِّها في السّلوكِ العملي.

فإذا اتضحَ وجودُ الحِجَاج في الخطابِ النبويّ، واتضحتْ قيمتُهُ وغاياتُهُ، يصبحُ الكلامُ على الحِجاجِ في الأحاديثِ النبويّةِ المُبيّنةِ للفضائلِ والمناقِبِ العلويّةِ، لهُ ما يُسوّغُهُ؛ لأنّها جزءٌ من الخِطاب النبويّ، ولأنّها تشغلُ مساحةً كبيرةً منه، فالحَجاجُ فيها لهُ القيمةُ، والغايةُ الثّابتتانِ للخِطابِ النبويّ عامة. لكنّ الحِجَاج علمٌ مترامي

الأطراف، واسعُ المفاهيم، لا يمكنُ لبحثٍ مقتضبٍ أن يستوفيه؛ لذا سيقتصرُ هذا البحثُ على تقديم محاولةٍ لتفكيكِ بِنيةِ نصوصِ الخطابِ النبويّ المناقِبي– المتمثّل في أحاديث النبيّ (صلّى اللهُ عليهِ وآلِه) في مناقِب الإمامِ علِيّ (عليه السلام)؛ للكشفِ عن المواضع والمنطلقاتِ الحجاجيّة فيها، والدلالاتِ المتولّدة من ذلك، والمقاصدِ الحِجاجيّةِ وراءَ إنشاءِ الخطابِ بها، وسيعتمدُ نظرياتِ بيرلمان وتيتيكا– مركزًا على أطروحات بيرلمان أكثر؛ لأنّها من أغنى النظريات الحِجاجيّة وأوسعها، ومن شأنِ ذلك أنْ يُغنِيَ الدراسةَ ويُتيحَ تقليبَ النظرِ فيها من زوايا مختلفةٍ، للخروجِ برؤيةٍ شاملةٍ وواضحةٍ عن كيفيّةِ تقديمِ النبيّ الأعظم (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ)، الإمامَ علِيّ (عليه السلام)، في خطاباتِه لجمهورِ المسلمينَ.

تعريف مواضع الحِجَاج

هي المقدماتُ، والمرجعيّاتُ، والمسلّماتُ، ومواضع الاتفاق العامّة أو عند مجتمعٍ خاصٍّ، التي ينطلقُ منها الحِجاجُ، ويُبنى عليها، ممّا يضمنُ نجاعتَهُ، ويستمدُّ مقبوليتَه، وينجحُ في إقناعِ الموجَّه له، ولا شكّ أنّ لكلّ خطابٍ حِجاجيٍّ مقدّماتِه ومنطلقاتِه.

وقد أدرجوا في تلك المنطلقاتِ والمقدّماتِ، الوقائعَ والأحداثَ المشهودةَ المُسلَّم بها عند جمهورِ المخاطَبينَ، والحقائقَ الدينيّةَ والفلسفيّةَ والعلميّةَ التي تكون موضعَ اتّفاقهم، فيعمدُ الخطيبُ، أو المتكلّمُ إلى ربطِ الوقائعِ بالحقائقِ؛ للوصولِ إلى النتيجة، وتدخلُ في المنطلقاتِ الافتراضاتُ التي تكونُ مقبولةً عند المخاطَبين، لكنّها أقلُّ قيمةً، وتسليماً من الوقائعِ والحقائقِ، وتتدرجُ في المنطلقاتِ أيضًا القيمُ الأخلاقيّةُ العامّة أو الخاصّة التي تحظى بالقبولِ والإذعانِ والاحترامِ، والمواضعُ التي تكون مسلّماتٍ مضمرةً في الخطاب ذات طبيعة عامة جدًّا، يُبنى عليها الحِجاج، عبّر عنها شيشرون بـ(مخازن الحُجَج)[1].

والحِجاجُ لا يكمنُ في الاعتمادِ على المسلّماتِ بين المُخاطِب والمُخاطَب فقط، بل في الاختيارِ من بينها في الخِطاب؛ ممّا يدفعُ المتلقّي للخِطاب إلى التساؤلِ عن الغرض الحِجاجي من اعتمادِ تلك المسلّمات منطلقاتٍ للحِجاجِ دون غيرها " فخضوعها للاختيار يمنحها حضورًا في الوعي ويحول بينها وبين الإهمال، والحضور عامل جوهري في الحِجاج...، كما أنّ هذه العناصر المختارة والمتفق عليها تخضع للتأويل الذي يمنحها دلالات معيّنة"[2].

مواضع الحِجاج في بينة أحاديث مناقب الإمام (عليه السلام)

من يُنْعِمُ النظرَ في متونِ أحاديثِ النبيّ محمّدٍ (صلّى اللهُ عليهِ وآلِه) الواردةِ في فضائلِ الإمامِ علِيّ (عليه السلام) ومناقِبِه، يجدها خطابًا ذا منطلقاتٍ معرفيّةٍ، عمادها أسسُ المنظومةِ الدينيّةِ الإسلاميّةِ، ومفاهيمُها، وحقائقُها، ويتكِئُ على وقائعَ وأحداثٍ ومواقفَ شهدها كثيرٌ من جمهور المسلمين المخاطبينَ بها، وتواترت لدى الباقين منهم، كان علِيٌّ (عليه السلام) محورها، ويذكرُ خصالاً تحلّى بها، وخصائصَ انمازَ فيها، إيمانًا، وخُلُقًا،

وعلمًا، وعملًا، فهو خطابٌ لا ينطلقُ من هوًى شخصّيٍ، أو رابطٍ أسريٍّ، أو مبالغةٍ في المدحِ، وهو ليسَ خطابًا شعريًّا.

تتمثّلُ المنطلقاتُ الدينيّةُ، وما يتّصلُ بها من الوقائعِ والمواقفِ والقيمِ في تاريخ الإسلام في البِنيةِ الحِجاجيّة للخطابِ المناقِبيّ في طيفٍ واسعٍ من الأحاديثِ النبويّةِ، منها التي تذكرُ سابقةَ الإمامِ علِيّ (عليه السلام) في الإسلام والتصديقَ برسولِهِ ورسالتِهِ، ونصرتَهما، والدفاعَ عنهما، ونيله مقامات القرب من الله ورسوله، وما يدورُ في هذا المجال، وفيما يلي نماذجُ قليلةٌ منها:

- **«علِيٌّ أوّلُ منْ آمنَ بي، وصدَّقني»**[3].
- **«قد صلّتِ الملائكةُ عَلَيّ، وعلى علِيٍّ سبعَ سنين؛ وذلك أنّهُ لمْ يُصلِّ معي رجلٌ غيرُهُ»**[4].
- **«لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، كَرّارًا غيرَ فرّارٍ»**[5]
- **«أوّلُكم ورودًا عَلَيَّ الحوضَ أوّلُكم إسلامًا، عليّ بن طالب»**[6].
- **«إنّ هذا أوّلُ من آمنَ بي، وهذا أوّلُ من يُصافحني يوم القيامة، وهذا الصدّيقُ الأكبرُ، وهذا فاروقُ هذه الأمّة يفرقُ بين الحقِّ والباطلِ، وهذا يعسوبُ المؤمنينَ، والمال يعسوبُ الظالمينَ»**[7].
- **«إنّه لأوّلُ أصحابِي إسلاماً، (أو أقدم أمتي سلماً)، وأكثرُهم علماً، وأعظمُهم حلماً»**[8].
- **«من أحبَّ أنْ يحيا حياتِي، ويموتَ موتِي، ويسكنَ جنّةَ الخُلدِ التي وعدَنِي ربّي، فليتولّ علِيَّ بن أبي طالب، فإنّه لنْ يُخرجَكم من هدًى، ولنْ يُدخلَكم في ضلالةٍ»**[9].

إنّ البؤرة الحجاجيّة في هذه العيّنة المحدودة من الأحاديث، تتمثّلُ في وقائعَ وحقائقَ ومواقفَ مشهودةٍ وذاتِ خلفيّات دينيّة مسلّم بها عند جمهور المُخاطَبين، وتوجب تميّزًا وفضلًا، مثل أوليّةِ الإسلام، واتّباعِ نبيّه، والتجسيدِ الأرقى لتعاليمِه، والأكثر علمًا فيه، وتمييزِ الحقِّ والباطل، ونحو ذلك ممّا يندرجُ في هذا السياق، ممّا يندرجُ عند تحت مواضع الكم والكيف والترتيب بحسب تصنيف بيرلمان، ولو لم تكن كذلك لما ساغَ الانطلاقُ منها، وسَوقُها مناقبَ وخصائصَ وفضائلَ، وعدّها بمنزلة الحُججِ المُتسانِدة والمُتعاضِدة التي تخدم نتيجةً واحدةً هي انميازُ صاحبِها، وتقدّمُه على غيره، وتسنّمه مقامًا دينيًّا رفيعًا، وقد وظّفت فيه صيغة التفضيل (أوّل، أقدم، أكثر، أعظم، الأكبر)، والجمل الخبريّة غالبًا، والإنشائيّة أحيانًا، وبالجمعِ بينهما في أحيانٍ أُخر؛ لبيان الغرض الحِجاجي للخطاب المناقبي.

لمّا كانت القيمُ المواضعُ تشكّلُ ذخائرَ الحُجج، ومقدّماتِ الحِجاج الأساسية، والمسلّماتِ التي يؤمنُ بها المُتلقّي، وينطلقُ منها الحِجاجُ، ويستمدُّ قيمتَه الإقناعيّةَ، يمكنُ القولُ إنَّ البِنيةَ الحِجاجيّةَ لخطابِ المناقبِ العلويّةِ ترتكزُ

على القيمِ والمواضعِ الدينيّةِ بصورةٍ رئيسةٍ؛ تبعًا للخصوصيّة الدينيّة لعناصر العمليّة التخاطبيّة؛ لذا يمكنُ إعادةُ صياغةِ ما تقدّمَ إعادةً أكثر تنظيمًا وتركيزًا وفقَ أصنافِ المواضعِ المُعتمَدَة في خطابِ المناقِب:

1- مواضع الكم:

هي المواضعُ التي تسوّغ الأفضليّةَ والتميّزَ لأسبابٍ كميّةٍ وعدديّةٍ؛ مما يُستعمل للدلالةِ عليه عادةً أسماء التفضيل مثل: الأكبر، والأكثر، وما جرى مجراهما[10]، وقد اعتمدَ النبيُّ الأكرمُ (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ) في أحاديث عدّة هذه المواضعَ لبيانِ فضائلِ الإمامِ عليّ (عليه السلام)، ومناقبِهِ الموجبةِ لأفضليّتهِ على غيره، وتتجلّى في النماذجِ الآتيةِ من أحاديثهِ (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ) التي تقدّمَ بعضُها:

- **«إنّهُ لأوّلُ أصحابِي إسلاماً، (أو أقدم أمتي سلماً)، وأكثرُهم علماً، وأعظمُهم حلماً»**[11]، استندَ الحِجاجُ هنا بالتفضيل لعليّ(عليه السلام) إلى موضعينِ كمّيينِ هما: الأكثر علمًا، والأعظم حلمًا، ولا يشكُّ أحدٌ أنّ التفوّقَ في العِلمِ على الأغيار، والارتقاءَ في الحِلم، ممّا يوجبُ الانميازَ، والأفضليّةَ لمن حازهما، كيف والمتلقّي لهذا الخطابِ يؤمنُ بالقرآنِ الكريم الذي أقرَّ اللهُ تعالى فيه هذه الحقيقةَ في مواضعَ عدّة، منها:**﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾** [سورة المجادلة:11]. **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾** [سورة هود:75]. ولا يجري الحديثُ عن عليّ (عليه السلام)، إلّا مقرونًا بالعِلْم، ولا تُذكرُ مناقِبُه إلّا وكان وافر علمِه في مقدمتها؛ معدودًا من خصائصِه، وفرائدِه. يرشدُ إلى ذلك ما حفلت بهِ سيرتُهُ من شواهد من أقوالٍ، ومواقفَ تدلُّ على ذلك، وشهاداتٍ عدّةٍ بتفوّقهِ العلمي، على رأسِها شهاداتُ أستاذهِ ومربّيه رسولِ الله (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ). المتعدّدة له بتلكِ المنقبةِ والخصيصة، منها الحديث الذي هو محلّ الاستشهاد، ومنها حديث رسول الله (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ) المشهور في علمِ عليّ (عليه السلام). المروي عن ابن عبّاس ومجاهد: **«أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا، فَمَنْ أَرَادَ الْمَدِينَةَ فَلْيَأْتِ الْبَابَ»** [12].

- **«لَوْ أَنَّ اَلرِّيَاضَ أَقْلَامٌ، وَالْبَحْرُ مِدَادٌ، وَالْجِنُّ حَسَّابٌ، وَالْإِنْسُ كُتَّابٌ، مَا أَحْصَوْا فَضَائِلُ عَلِي بْنْ أَبِي طَالِب»**[13]، وعمادُ هذا الحديثِ هو الموضعُ الكمّيُّ المتمثّلُ بالعددِ الذي لا يُحصى من فضائلِ عليّ (عليه السلام)، مهما عظمتْ أدواتُ الإحصاء، وتعاونتْ أصنافُ المُحصِينَ. وربّما يكون المقصودُ ليس كثرة الفضائل من حيث العدد، بل عدد درجات علو المنازل، المرتبطة بتلك الفضائل. وقد اعترف غيرُ واحدٍ من المحدّثين بكثرة فضائله، ومناقبه، من ذلك قول ابن عبد البر: " وفضائله لا يحيطُ بها كتابٌ، وقد أكثر الناسُ من جمعها"[14].

- **«قُسِّمتِ الحكمةُ عشرةَ أجزاءٍ، فأُعطِيَ عَلَيٌّ تسعةَ أجزاءٍ، والناسُ جزءًا واحدًا»**[15].

انطلقَ هذا الحِجاجُ من مسلّمةٍ بديهيّةٍ أنّ من يحوز النصيبَ الأكثرَ من الحكمة أفضلُ ممّن يحوز الأقلَ منها، وكلّما كانت الفجوةُ واسعة بين النصيبِ الأعلى، والنصيبِ الأقلّ، ازداد فضلُ صاحبِ النصيبِ الأعلى، وازدادَ الفارقُ بينه وبين غيره، وقد حدّدَ الحديثُ نسبةَ المفاضلةِ تمثيلًا بأنَّ الحكمةَ لو كانت عشرةَ أجزاءٍ فلِعليٍّ تسعةٌ

منها، ولباقي الناس جزءٌ واحدٌ. فإذا كان الذي يُؤتى الحكمة قال تعالى فيه: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا**﴾ [سورة البقرة: 269]. فكيف بمن يُؤْتى تسعةً من أجزائها العشرة؟! وكيف يُقارنُ به من لم ينلْ إلّا جزءاً واحدًا منها؟! يجتمعُ هذا الحديث مع أحاديث اختصاصِ عليّ (عليه السلام) بعلْمِ رسولِ اللهِ (صلّى الله عليه وآله)، وتوفّرِهِ على النصيبِ الأوفرِ منه، الذي تحضرُ فيه لازمةُ الحديث عن ذلك، وهي منزلة باب العلم النبويّ (باب علمي، وعلي بابها). ويؤكّدُ الإمامُ عليٌ(عليه السلام) بلوغَهُ هذه المنزلة، واختصاصَهُ بهذه المنقبة في خطبٍ له، فيخبرهم بما اختصّهُ رسولُ اللهِ (صلّى الله عليه وآله) بأنْ فتحَ له أبوابَ العلِم التي تنفتحُ على غيرها باستمرار، مستعيرًا لفظ الباب أيضًا الذي أصبحَ كأنه لازمةٌ نصيّةٌ، أو تصاحبٌ لغوي كلّما كان سياق الحديثُ عن علمِه (عليه السلام). فيقول: **«علّمَنِي رسولُ اللهِ (صلّى اللهُ عليهِ وآلِه) ألفَ بابٍ يفتحُ كلّ بابٍ ألفَ بابٍ»**[16]. والألفُ بابٍ الذي ينفتحُ كلُّ واحدٍ منها على ألفٍ آخر تعبيرٌ عن بحور ذلك العلم المترامية، المتّصلةِ بمحيطاتِ العلمِ النبويّ التي تنبعُ من معينِ الوحي الذي لا يَنضب:

- **عن عليّ** (عليه السلام) **قالَ، قالَ لي رسولُ الله** (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ): «يَا **عَلِيُّ، تَدْرِي مَنْ أَشْقَى الْأَوَّلِينَ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: عَاقِرُ النَّاقَةِ، قَالَ: تَدْرِي مَنْ شَرٌّ، وَقَالَ مَرَّةً: مَنْ أَشْقَى الْآخَرِينَ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: قَاتِلُكَ»**[17].

هنا حِجاجٌ مضمرٌ يرتكزُ على حقيقةٍ دينيّةٍ ذات موضعٍ كمّيٍّ مفادها أنّ الأكثرَ شقاوةً هو من يقتلُ الأتقى والأفضل عند اللهِ تعالى، فمن يقتل نبيًّا أكثر شقاءً ممّن يقتل وليًّا، ومن يقتل مؤمنًا أشقى ممّن يقتل فاسقًا؛ لذا فوصْفُ النبيّ قاتلَ عليٍّ بأنّه أشقى الآخرين؛ حجّةٌ نتيجتُها أفضليّةُ عليّ (عليه السلام)، وقد أُضمرتْ هذه النتيجةُ اعتمادًا على ذلك الموضعِ الكميّ المسلَّمِ به عند المتلقّينَ، وفي النص إشارةٌ لطيفةٌ تلمحُ من المقابلةِ بين عاقرِ الناقةِ من قوم نبيّ الله صالح (عليه السلام)، التي هي كانت آيةً ظاهرةً لله تعالى وحجّةً ناطقةً بقدرتِهِ وعظمتهِ، وصدقِ دعوةِ نبيّهِ، وبين قاتلِ الإمامِ عليّ (عليه السلام)، الذي كان آيةً ناطقةً بذلك، وأوّل المصدّقين بالنبيّ الخاتمِ (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ)، وقد كُذِّبتِ الآيتينِ، وتجاسرَ عليهما الجاحدون وأكثرُ الخلقِ شقاءً بالقتلِ.

2- مواضع الكيف:

هي المواضع التي تسوّغُ التفضيلَ لشيءٍ أو شخصٍ بأنّه فريدٌ ونادرٌ واستثنائيٌّ في الصفةِ والأهميّةِ، ولا يُقارنُ بهِ غيرُه، ولا يمكنُ تعويضُه، ويفيدُ الموضعُ الكيفيُّ أيضًا تثمينَ القيامِ بفعلٍ ما؛ لأنّه ضروريٌّ بحسب الظروف التي يقعُ فيها، وعدمُهُ يفضي إلى ضررٍ عظيمٍ[18].

وينطلقُ من هذه المواضعِ أحاديثُ نبويّةٌ متعدّدةٌ في فضائلِ الإمام عليّ (عليه السلام)، نختارُ تمثيلًا لها العيّناتِ الآتية:

أ- **«لَمُبارزةُ عليٍّ (أو قتلُ عليّ) لعَمْرو بنِ عبدِ ودٍّ (أو ضربةُ عليٍّ يومَ الخَنْدق) أفضلُ (أو خيرٌ) من عبادةِ الثَّقَلَينِ، أو أفضلُ من أعمالِ أمّتي إلى يومِ القيامةِ»**[19].

يقومُ هذا الحِجاجُ على تفضيلِ فعلٍ واحدٍ لعلِيّ على مجموعِ عبادةِ الثقلينِ (الأنس والجن)، أو أعمالِ أمّةِ الإسلام إلى يومِ القيامةِ ليس من جهةِ الكمّ؛ بل من جهةِ النوعِ والأهميّةِ والأجر تبعًا لذلك، ويُعرفُ ذلك بالرجوعِ إلى أهميّةِ تلك الضربةِ في دفعِ الخطرِ المُهددِ لوجودِ الإسلامِ؛ لأنّها قضتْ على عمرو بن عبد ودٍّ العامري، فارسِ جيوشِ أحزاب المشركينَ الأوّل، وقائدِها الأخطر، فكَسَرتِ الروحَ المعنويّةَ لديهم، وقد كان عمرو قد اقتحمَ الخندقَ بين الجيشينِ، وكادَ يعبرُهُ إلى المسلمينَ لو لم يوقفْهُ علِيٌّ (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ)، بضربتِهِ المشهورةِ، بعد أنْ بقي ابنُ ودٍّ العامري يصولُ في الخندقِ متحدّيًا المسلمينَ جميعًا طالبًا المُبارزةَ، فندبَهم النبيُّ لمبارزتِه ثلاثَ مرّاتٍ فأحجموا جميعًا! ولم يكن إلّا علِيٌّ يُجيبُه في الثلاثةِ «أنا لَهُ يا رسولَ الله»[20]. ويحكي القرآنُ الكريمُ الخطرَ الكبير الذي مثّلته جيوشُ أحزاب المُشركينَ على المسلمينَ في تلك المعركةِ، وحالةَ الرعبِ والهلعِ التي دبّتْ في صفوفِ المسلمينَ، : ﴿ **إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونا**﴾ [سورة الأحزاب:10] حتّى أثّرتْ على حواسِهم الظاهريّةِ (وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ)، والباطنيّةِ (وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) كنايةً عن الرعبِ الشديدِ الذي يكادُ ينقطعُ معه النفس، ويُقتلعُ القلبُ من مكانهِ ليصل إلى الحنجرةِ، بل بلغَ بهم الخوفُ مبلغًا تزلزلتْ معه ثقتهُم باللهِ تعالى وبنصرِهِ لهم.

تبيّنُ تفاصيلُ هذه الحادثةِ أنّ تلك الضربةَ العلويّةَ التي أردتْ ابنَ ودٍّ، هي عملٌ فريدٌ بلحاظِ فرادةِ شجاعةِ صاحبِها وإيمانِه، وبلحاظِ ما دفعتْ من الخطرِ، وما حقّقتْ من النصرِ، فضلًا عن النيّةِ الخالصةِ للهِ تعالى، فقد كانت ضربتَهُ خالصةً من شَوْبِ الغضبِ الشخصي.

ب– عن أنس بن مالك أنّه قال: لمّا حضرتْ وفاةُ أبي بكر _وساقَ الحديث إلى أنْ– قالَ **أبو بكر: سمعتُ رسولَ اللهِ (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ) يقول: «إنّ على الصِّراطِ لعقبةٌ، لا يَجوزُها أحدٌ إلاّ بجوازٍ من عليّ بنِ أبي طالبٍ»**[21].

وهنا انطلقَ التفضيلُ من موضعٍ قيميٍّ كيفيٍّ جليٍّ، متمثّلًا بعملٍ ضروريّ لا بديلَ له، ولا غنىً عنه، والنجاةُ متوقفةٌ عليه، وهو أنّ تجاوزَ العقبةِ على صراطِ يوم الحسابِ، والنجاةَ من الهلاكِ متوقفةٌ على إجازةٍ من علِيّ (عليه السلام)، وقد دُلَّ على ذلك بأسلوبِ القصرِ المركّبِ من النّفي والاستثناءِ (لا... إلّا). وقد جاءَ هذا الحديثُ بصياغاتٍ مقاربةٍ أخرى مثل (إلّا منْ كتبَ له علِيٌّ الجوازَ)، أو (إلّا منْ كانَ معه كتابُ ولايةِ علِيّ)، ويبدو أنّها أحاديثُ متعدّدةٌ تعضدُ المعنى نفسه، لاختلافِ أسانيدِها، وتعدّدِ صياغاتِها، وربّما يستوحشُ من دلالةِ هذا الحديثِ، فيُستأنسُ له بالحديثِ المتواترِ عن النبيّ الأعظمِ: «يا **عَلِيُّ لا يُحِبُّكَ إِلَّا مُؤمِنٌ ولا يَبغَضُكَ إِلَّا مُنافِقٌ**»[22]. والمؤمنُ هو الذي يجوزُ العقبةَ على الصراطِ إلى النعيم، والمنافقُ لا يجوزُها فيهوي إلى الدَّرْكِ الأسفلِ من الجحيم. ويبدو أنّ هذا انطلاق هذا الحديث من الموضع الكيفيّ له صلة بحجّة الفصل، هي تِقْنيّة حجاجيّةٌ تقومُ على الفصل بين عناصر أو مفاهيم يُظنُّ أنّها مترابطةٌ، ومتّحدةٌ لا مَيْزَ بينها، ممّا يُتيحُ فكَّ الارتباط بينها، والكشفَ عن الثنائيّة المضمرة، أوشقّ المفهوم الموحّد في الذهن إلى نصفينِ، أحدهما أعلى، أو أكثر قيمةً من الآخر، كالحقيقةِ والزيف، والجوهرِ والعَرَض، والغايةِ والوسيلة، والجسدِ والروحِ، والإلهي والبشري[23]، ونحو ذلك من

الثنائيّات التي تلتبسُ على النظرِ والفهمِ فلا يميزُ بينها؛ وعندئذٍ يأتي الحجاجُ بالفصلِ لفكّ الارتباطِ المتوَهَم، بتمييز الطرفينِ فبعد أنْ كان الطرفانِ مندمجينِ ومستويينِ ومتّحدينِ في الإيمانِ حسب الظاهرِ يأتي حبُّ عليٍّ وبغضُه، ليكشف عن تغايرٍ بينهما، وفصلٍ بين هويتهما، فتبرزُ الثنائيّة التالية: الإيمانُ الحقيقي، والنفاقُ المُضمَر الذي يتقنّعُ زيفًا بالإيمانِ.

ومن ذلك أيضًا الأحاديثُ الدالةُ على أنّ عليًّا الفاروق الأكبر، الذي يُفرّقُ بين الحقّ والباطلِ، فهو الذي- بما أوتيَ من العلمِ- يفكُّ الاشتباكَ والالتباسَ الحاصلِ بين مفاهيم الحقّ والباطلِ، فعن أَبِي ذَرٍّ، وَعَنْ سَلْمَانَ، قَالا: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ (صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ) بِيَدِ عَلِيٍّ (عليه السلام)، فَقَالَ: **«إِنَّ هَذَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِي، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ يُصافِحُنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا الصِّدِّيقُ الأَكْبَرُ، وَهَذَا فارُوقُ هَذِهِ الأُمَّةِ، يُفَرَّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَهَذَا يَعْسُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمَالُ يَعْسُوبُ الظَّالِمِين»**[24]. يؤيّدُ ذلك قولُ الامامِ عليٍّ: **«أنا عبدُ اللهِ، وأخو رسولِهِ، وأنا الصديقُ الأكبر، لا يقولُها بعدي إلا كذّاب، صلّيتُ قبل الناسِ لسبع سنين»**[25].

وتكمنُ أهميّةُ حجّةِ الفصلِ هذه التي تضمّنَها الخطابُ النبويّ في أمرينِ هما:

1- تحديدُ المعيارِ الذي يُحتكمُ إليه للفصلِ بين الحقّ والباطلِ، والإيمانِ والنفاقِ، فيكون بذلك ضمانةً من الوقوعِ في الزيغِ، والضلالِ، والتضليل، وهدايةً لمن يرومُ الحقَّ، والهدايةَ، والنجاةَ.

2- إثباتُ فضيلةٍ عظيمة، ومنقبةٍ رفيعة، للإمامِ عليّ (عليه السلام).

والخلاصة أنّه مهما اختلفتْ ألسنةُ تلك الأحاديثِ، وتعدّدتْ تأويلاتُها، فهي تدلُّ في مجملِها على خصيصةٍ لعليّ (عليه السلام)، تعتمدُ الموضعَ الكيفيّ لإبراز مناقبِه الفريدةِ.

ت- عن عليّ أنّه قال: **لَمَّا نَزَلَتْ عَشْرُ آيَاتٍ مِنْ بَرَاءَة عَلَى النَّبِيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، دَعَا النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَبَا بَكْرٍ، فَبَعَثَهُ بِهَا لِيَقْرَأَهَا عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ، ثُمَّ دَعَانِي النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَقَالَ لِي :«أَدْرِكْ أَبَا بَكْرٍ، فَحَيْثُ مَا لَحِقْتَهُ فَخُذِ الْكِتَابَ مِنْهُ، فَاذْهَبْ بِهِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ فَاقْرَأْهُ عَلَيْهِم»، فَلَحِقْتُهُ بِالْجُحْفَةِ، فَأَخَذْتُ الْكِتَابَ مِنْهُ، وَرَجَعَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى النَّبِيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَزَلَ فِيَّ شَيْءٌ؟ قَالَ:«لا، وَلَكِنَّ جِبْرِيلَ جَاءَنِي، فَقَالَ :لَنْ يُؤَدِّيَ عَنْكَ إِلَّا أَنْتَ، أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ»**[26].

يرتكزُ التفضيلُ في هذا الحديثِ على فكرةِ العمل الضروري الذي لا يؤدّيه إلّا شخصٌ استثنائيٌّ، ففرادةُ العملِ مرتبطةٌ بفرادةِ من يقومُ به، وبقصرِهِ عليهِ دون غيرِه، فقد حاججَ النبيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ) في تعليلِ منعِ أبي بكر من تبليغِ آياتٍ من سورةِ براءة، بالأمرِ السماوي القاضي بحصرِ تلكَ المهمّةِ بهِ، أو برجلٍ منه: **«لَنْ يُؤَدِّيَ عَنْكَ إِلَّا أَنْتَ، أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ»**. وبذلكَ يُلمحُ بوضوحِ الموضعُ الكيفيّ الذي بُنِيَ عليه الحِجاجُ النبويّ في اختصاصِ عليٍّ (عليه السلام)، بالتبليغِ عنه دون غيره، ومنطلقُهُ من أمرينِ هما: خصوصيّةُ الفعلِ**(لَنْ يُؤَدِّيَ عَنْكَ)** وهو التبليغ عن النبيّ الخاتم (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ)، وخصوصيّةُ الفاعلِ المُبلغ **(رجلٌ منك)**، فتأديةُ التبليغِ بتمامِ

حقّه تلاوةً وبيانًا، لا يضطلعُ به إلّا من كان تامًّا في المعرفةِ والانتماءِ للرسول (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ)، ورسالته، وليس الأمرُ منوطًا بمحضِ الانتماءِ الأسري.

وكون عليّ من رسول الله (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ) بالمعنى المتقدّم هو معنى جذّره الرسول (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ) نفسه في أحاديث متعدّدة، حتّى في ردّه على من يطعنُ في عليّ (عليه السلام)، فكان يعلّل رفضه لذلك الطعن بأمور منها أنّه منه (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ)، من ذلك قوله المشهور: **«لَا تقعن يَا بُرَيْدَة فِي عَليّ؛ فَإِنّ عليًّا مِنّي، وَأَنا مِنْهُ، وَهَذَا وَلِيُّكُم بعدِي»** [27]. ويدّل على كونه منه ليست بالمعنى النسب والسبب، تذييله الحديث بكوّنه وليًّا على المسلمين من بعده، وهذا جوهر الاتّحاد. فهذه الحجّةُ فيها تنزيهٌ لعلِيّ (عليه السلام)، من الخطأ والدوافع الشخصيّة فيما فعل؛ لأنّه متّحدٌ مع رسول اللهِ (صلّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِه وَسلّم)، في النهج، والعمل، والهدي؛ فكأنه النبيّ يقولُ لهم: (اتهامكم له، ونيلكم منه، هو اتهامٌ لي، وطعنٌ فيَّ)؛ ثم هو من له الولايةُ عليكم، ويلزمُكم الطاعةُ له.

3- مواضع الترتيب:

هي المواضعُ التي تفيدُ أفضليّةَ السابق على اللاحق، أو سموّ الأوّل على الآخر، والسببِ على النتيجةِ، ويحتلُّ هذا النوعُ من المواضعِ أهميّةً في التقييمات الأخلاقيّة، والاجتماعيّة، والإداريّة[28].

وقد جاءتِ العديدُ من أحاديثِ النبيّ (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ)، في بيانِ مناقِبِ الإمامِ علِيّ (عليه السلام)، مُنطلِقةً من هذا النحو من المواضعِ، ورصدَ البحثُ في حدودِ دائرةِ استقرائه، أنّ التفضيلَ بمواضعِ الترتيب في تلك الأحاديثِ، كان على ثلاثة أنماط تبعًا للأسبقيّةِ في ثلاثةِ عوالم:

أ- **تراتبيّة الوجود:** يندرجُ في هذا التفضيلِ القائمِ على الأسبقيّةِ، والتقدّم في عوالمِ التكوينِ السابقةِ لهذا العالَمِ (الدُّنيا)، ما دلَّ من الأحاديثِ النبويّةِ على تقدّم الوجودِ النوريّ للنبيّ وعلِيّ (عليهما الصلاة والسلام) واتّحادِهِ، من قبيل قوله (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ) :**«كنتُ أنا وعلِيٌّ نوراً بينَ يَدَي اللهِ تعالى قبلَ أنْ يُخلقَ آدمُ بأربعةَ عشرَ ألفَ عامٍ، فلمّا خلقَ اللهُ آدمَ قسّمَ ذلك النورَ جزأينِ، فجزءٌ أنا، وجزءٌ علِيّ»**[29].

وما دلَّ منها على تقدّمِ أخوتهما (عليهما الصلاة والسلام)، قبلَ خلقِ هذا السماواتِ كما في الحديثِ المنقولِ عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ عن النبيّ (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ) أنّه قال :**«مَكْتُوبٌ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، عَلِيٌّ أَخُو رَسُولِ اللَّهِ، قَبْلَ أَنْ تُخْلَقَ السَّمَاوَاتُ بِأَلْفَيْ سَنَةٍ»**[30].

ب- **تراتبيّة الإيمان:** وقد انطلقتْ من هذا الموضعِ التراتبيّ، الأحاديثُ النبويّةُ المتواترةُ الدّالةُ على أنّ علِيًّا (عليه السلام) في هذا العالَم، حازَ فضيلةَ السبقِ إلى الإيمانِ بالنبيّ ورسالتِه، وأداءِ الصلاةِ معهُ قبلَ سائر المسلمين بسنواتٍ عديدةٍ، من قبيل قوله (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ):

- **«علِيٌّ أوّلُ منْ آمنَ بي، وصدَّقَني»**[31].

- **«قد صلَّتِ الملائكةُ عَلَيّ، وعلى عليٍّ سبعَ سنين؛ وذلك أنّهُ لمْ يُصلِّ معي رجلٌ غيرُهُ»**[32].

وقد أكّد ذلك عليٌّ (عليه السلام)، في حِجاجٍ له قائلًا: **«أنا عبدُ اللهِ، وأخو رسولِه** (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ)، **وأنا الصدّيقُ الأكبر، لا يقولُها بَعدِي إلّا كذّابٌ، صلّيتُ قبلَ الناسِ لسبعِ سنين»**[33].

ت–تراتبيّة الورود: تندرجُ هنا الأحاديثُ النبويّةُ التي عدّتْ من فرائدِ عليّ (عليه السلام) ومناقبِهِ أنّه أوّلُ من يردُ على النبيّ (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ)، الحوضَ يوم القيامةِ:

«أوّلُكم ورودًا عَلَيَّ الحوضَ، أوّلُكم إسلامًا، عليُّ بن أبي طالب»[34]، وأوّلُ من يصافحُهُ: **«إنّ هذا أوّلُ من آمنَ بي، وهذا أوّلُ من يُصافحني يوم القيامة»**[35].

وبذلك تكون الأحاديثُ النبويّةُ قد سجّلتْ لعليّ (عليه السلام) الأفضليّةَ القائمةَ على السبقِ والأوليّةِ في العوالمِ الثلاث: عالَم النُّور، عالَم الدُّنيا، عالم الآخرة، ولو لم تكن تلك المواضعُ مسلّمةَ الأفضليّة لما صلحتْ أنْ تكونَ حُججًا ينطلقُ منها للمفاضلةِ.

4– مواضع الجوهر:

هي المواضعُ التي تعلّلُ تفضيلَ شخصٍ ما وتقديمَه على غيرِهِ بوصفِهِ التمثيلَ الحقيقيَّ الكاملَ للجنسِ الذي ينتمي إليهِ[36]، مثلما يشيعُ كثيرًا في المبالغةِ بالمدحِ: (هذا رجلٌ، أو هذه امرأةٌ، أو هذا شاعرٌ) ونحو ذلك، فليس الغرضُ من ذلك التعريف بجنسِ المشارِ إليهِ أو صنفِهِ، بل المبالغةُ بالمدحِ والتفضيلِ بجعلِهِ يمثلُ جنسَه تمثيلًا كاملًا، أو بِعَدِّهِ الجوهرَ الحقيقيَّ له، حتّى كأنّ جنسَهُ أصبح يُعرَّفُ به.

وكان هذا النوعُ من المواضعِ حاضرًا في بِنيةِ الحِجاجِ المناقِبيّ الذي تضمّنهُ الخطابُ النبويّ، وفيما يلي نماذجُ من الأحاديثِ النبويّةِ الشريفةِ التي جعلتْ عليًّا (عليه السلام)، ممثلًا لجوهرِ الإيمانِ، والفتوّةِ، والهدايةِ:

- قالَ النبيُّ (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ)، عندما برزَ عليٌّ (عليه السلام) لعمرو بن ودّ العامري في معركة الخندق: **«برزَ الإيمانُ كلُّهُ إلى الشركِ كلِّهِ»**[37]. فجعلَ عليًّا ممثّلًا للإيمان، مؤكّدًا ذلك توكيدًا معنويًّا **(الإيمانُ كلُّهُ)**.
- وقد قالَ النبيُّ (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ)، يومَ بدر، أو أخبرَ أنّ جبرائيل أو رضون قال: **«لا سيفَ إلا ذو الفقار، ولا فتىً إلّا عليّ»**[38]، عقبَ الدورِ القتاليّ الفريدِ الذي قامَ عليٌّ (عليه السلام)، فأصبحَ سيفُهُ ممثلًا لجنسِ السيفِ، حتّى كأنّه لا سيفَ غيره في البين، وأصبحَ هو في شجاعتِهِ جوهرَ الفتوّة، والممثّلَ الحقيقيّ لجنسِها، حتّى كأنْ لا فتى غيره في الميدانِ، فقُصِرتْ حقيقةُ السيفِ على سيفِه، وحقيقةُ الفتوّةِ عليهِ بدلالةِ أسلوبِ القصرِ المؤلَّف من النفي والاستثناء.
- جاءَ عن النبيّ (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ)، في تفسير قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٖ﴾ [سورة الرعد:7]. أنّه قال: «**أنا المنذرُ، وعلِيٌّ الهادي، وبكَ يا عليُّ يهتدي المُهتدُون من بعدي**»[39]. فجعلَ عليًّا (عليه السلام)، الممثّلَ الحقيقي، والمصداقَ الأوحدَ لجنسِ فاعلِ الهدايةِ.

ممّا ينبغي الالتفاتُ إليه أنّ استعمالَ موضعِ الجوهرِ في التفضيلِ في الخطابِ النبويّ له خصوصيتُهُ الناشئةُ من خصوصيّة النبي (صلّى اللهُ عليهِ وآلِهِ)، فإذا كانَ سائرُ الناس قد يبالغونَ بجعل شخصٍ ما يمثّلُ جوهرًا ما، حتّى وإنْ لم يكنْ كذلك في الواقعِ، لاسيّما الشعراء منهم، فذلك ممتنعٌ بحقّ النبيّ (حجّة الأيتوس)، فهو لا ينطقُ عن الهوى، فلا يرفعُ أحدًا فوق مقامِه، ولا ينزله دونه، ولا يشتبُه، ولا يُجاملُ، بل كلامه مطابقٌ للواقعِ بتمامِ الحقيقةِ، ومصيبٌ للحقيقةِ بتمامِ الواقع، ومن ذلك نعرفُ قيمةَ الأحاديثِ النبويّةِ التي جعلتْ عليًّا (عليه السلام)، جوهرًا لجنسِ المعاني التي مرّ ذكرُها، وما جرى مجرَاها ممّا لم يُذكرْ هنا؛ تجنبًا للإطالة.

ومؤدّى هذا موضع الجوهر يلتقي بحجّة القدوة، وهي من الحُججِ التي تبني الواقعَ، وتقومُ على استدعاء شخصٍ في الخطاب الحِجاجي يمتلكُ حظوةً عند المُخاطَبين، وتثمينِ أفعالِه، للاقتداء بهِ، ومحاكاةِ أفعالِه، والحضّ على اتباعِ سلوكِه، وقد تُستدعى نماذجُ مضادةٌ لنماذجِ القدوةِ الحسنةِ؛ للتنفير منها، ومن أفعالِها[40].

وتُستعارُ القدواتُ من الحاضرِ والتاريخ، ويمكن أن تكون أسطوريّةً، أو واقعيّةً، اجتماعيّةً، أو دينيّةً مقدّسةً، والأخيرةُ أكثر أنواع القدوات تأثيرًا، وإقناعًا، لما لها من سلطةٍ روحيّةٍ هائلةٍ على المؤمنين بها. وتشكّلُ القدوةُ تقنيّةً حجاجيّةً في الخطابات المختلفة لتحقيق الإقناع، وعاملًا أساسيًّا في التربيّة الأخلاقيّة، يسهمُ في بناء الإفراد وتماسك المجتمعات[41].

وقد أرشدَ القرآنُ الكريمُ الى اتّخاذِ رسول اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) قدوةً وأسوةً في المنهجِ والسيرةِ والهَدْي: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾** [سورة الأحزاب: 21]. وأشارَ الرسولُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، إلى اتّخاذ عليّ (عليه السلام) قدوةً في العملِ، ومنارًا في الهدايةِ، عبر تقديمِهِ أنموذجًا إسلاميًّا فريدًا في الإيمانِ، والعلمِ، والفداءِ، والمُؤازرةِ، ونحو ذلك ممّا بيّنتْهُ الأحاديثُ النبويّةُ التي تقدّمت نماذجُ منها، حلّلناها في منطلقاتِ الحِجَاج، فلا نعيدُ، ويكفي هنا أنْ نعرضَ الحديثَ النبويّ المرويّ في مخاطبةِ عمّار بن ياسر، وأمره باتّخاذ عليّ قدوةً تُتّبع، ومنارًا يُهتدَى به، ونهجًا يُحتذى: «**يا عمّارُ، إنْ رأيتَ عليّاً قد سلكَ واديًا، وسلكَ الناسَ واديًا غيرَه، فاسلكْ مع عليٍّ ودعِ الناسَ؛ إنّه لنْ يُدلّك على ردى، ولنْ يُخرجَكَ من الهدى**»[42]. ومثله الحديث المرويّ بطريقٍ آخر: «**مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَحْيَا حَيَاتِي، وَيَمُوتَ مَوْتِي، وَيَسْكُنَ جَنَّةَ اَلْخُلْدِ اَلَّتِي وَعَدَنِي رَبِّي، فَلْيَتَوَلَّ عَلِيَّ بْن أَبِي طَالِبْ؛ فَإِنَّهُ لَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ هُدًى، وَلَنْ يُدْخِلَكُمْ فِي ضَلَالَةٍ**»[43].

وهذه الحجّة (القدوة) التي يقدّمُها الخطابُ النبويُّ ترتفعُ من مستوى الإرشادِ المحضِ، والاقتراحِ المُجرَّد إلى الإلزام بما ترشدُ إليهِ، بلحاظِ سلطةِ صاحب الخِطاب (النبي)، المُسلَّمةِ عند أطرافِ التخاطب، والمتجليّةِ في خطابِه بأفعال الأمر (فاسْلكْ، ودَعْ، وفليتولَّ). والمعزّزةِ بالتعليلاتِ المُحبّبةِ للمؤمنين، وهي أنّ في موالاةِ عليّ

والاقتداءِ به حياةً على ملّة الرسول الأكرم (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، ومماتًا عليها، وضمانةً للزوم الهدى، وحصانةً من الضلالةِ والردى.

الخاتمة والنتائج

في ختامِ هذه الجولةِ الحِجاجيّة السريعة في رحابِ أحاديث مناقب، وتقليب النظرِ في المواضع والمنطلقات التي اعتمدتها انتهى البحثُ إلى مجموعةٍ الأمور التي مرَّ تفصيلها في متنِ البحث، وهذه خلاصتها:

1- إنّ خطابَ المناقب العلويّة خطابٌ ذو منطلقاتٍ معرفيّةٍ. عمادها أسسُ المنظومةِ الدينيّةِ الإسلاميّةِ، ومفاهيمُها، وحقائقُها، ويتكِئُ على وقائعَ وأحداثٍ ومواقفَ شهدها كثيرٌ من جمهور المسلمين المخاطبينَ بها، وتواترت لدى الباقين منهم، كان عليٌّ (عليه السلام) محورها، ويذكرُ خصالاً تحلّى بها، وخصائصَ انمازَ فيها، إيمانًا، وخُلُقًا، وعلمًا، وعملًا، فهو خطابٌ لا ينطلقُ من هوًى شخصّيٍّ، أو رابطٍ أسريٍّ، أو مبالغةٍ في المدحِ، وهو ليسَ خطابًا شعريًّا.

2- إنّ هذهِ المُعاينةَ الفاحصةَ للمواضعِ الحجاجيّةِ في الخطابِ النبويّ المناقِبي، كشفتْ عن أنّه اعتمد أغلبَ المواضعِ المعروفةِ في بناءِ منظومةِ حُججهِ؛ لبيانِ الفضائلِ العلويّةِ، فجاءت التفضيلاتُ منطلقةً من مواضعِ الكمِّ، والكيفِ، والترتيبِ، والجوهرِ، فكان حِجاجًا متكاملًا يُعبرُّ عن كمال القائلِ (النبيّ) في بناء حِجاجِهِ، وكمالِ من بُنِيَ الحِجاجُ لأجلِهِ (عليّ) في مناقِبِهِ، وشمائلِهِ، وخصائصِهِ.

3- تجلّت مواضع الكم التي اعتمدها حِجاج المناقب في عبارات عدّة، مثل (الأكثر علمًا، والأعظم حلمًا)، ولا يشكُّ أحدٌ أنّ التفوّقَ في العِلمِ على الأغيار، والارتقاءَ في الحِلم، ممّا يوجبُ الانميازَ، والأفضليّةَ لمن حازهما.

4- تمثّلت مواضع الكيف التي انطلقَ منها الحِجاج، في أفعالٍ وفضائل فريدة مميّزة، وضروريّة، من ذلك أهميّة ضربته يوم الخندق وتفضيلها على عبادة الثقلين، وعد تجاوز عقبة على الصراط إلّا بجوازٍ منه، وانحصار التبليغ عن النبي به.

4- رصدَ البحثُ ثلاثة أنواع من مواضع الترتيب البارزة في أحاديث المناقب، وهي ترتيب الوجود، وترتيب الإيمان، وترتيب، الورود. من حيث بدء الخليقة، والسبق إلى الإيمان، وأوليّة الورود والوفود على رسول الله (صلّى اللهُ عليهِ وآلِه).

5- أوردت أحاديث المناقِب عليًّا ممثّلًا لجواهر ساميّة، ذات مرتبة عاليّة، مثل جعله ممثلًا للإيمان كلّه، وانحصار الفتوّة به.

الهوامش:

1 – يُنظر: محاضرات في البلاغة الجديدة :26.

2 – محاضرات في البلاغة الجديدة: 29–30.

3 – ترجمة الامام علي في تاريخ دمشق:63/1، وأمالي الطوسي: 148، ح242. وشواهد التنزيل:184/2، رقم الحديث:818.

4 – أُسد الغابة (باب علي بن أبي طالب):103/4. والمناقب (الخوارزمي):53، رقم الحديث: 18. وترجمة الإمام علي من تاريخ دمشق:81/1/ رقم الحديث: 114.

5 – صحيح البخاري:207/4، وصحيح مسلم:121/7.

6 – المُستدرَك على الصحيحينِ: 147/3/ رقم الحديث:4662.

7 – البحر الزَّخَّار: 342/9، والمعجم الكبير للطَّبرانيّ: 269/6.

8 – مصنف عبد الرزاق الصنعانيّ: 489/5، ومصنف ابن أَبي شيبة: 374/6، ومسند أَحمد: 422/33.

9 – المعجم الكبير للطَّبرانيّ: 194/5، والمستدرك على الصَّحيحين: 139/3.

10 – يُنظر: الحِجاج أُطرُهُ ومنطلقاتُهُ وتقنيّاته: 312. والإمبراطوريّة الخطابيّة (صناعة الخطابة والحِجاج):101.

11 – مرَّ تخريجه.

12– المُستدرك:3/ 137/ رقم الحديث: 4637. وقد وثّق أبا الصلت راوي الحديث الذي جرت محاولات للطعن فيه؛ لتضعيف الحديث، ثم خرّج الحديث من طرقٍ صحيحةٍ أخرى ليس فيها أبو الصلت تنتهي إلى ابن عبّاس ومجاهد، وطريقٍ صحيحٍ آخر من سفيان الثوري ينتهي إلى جابر الأنصاري. فقطعَ بذلك الطريق على تلك المحاولات. يُنظر: م.ن: 3/ 138. وممّن صرّح بحسنه بعد نقل طرقه الزركشي في كتابه اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة المعروف بـ (التذكرة في الأحاديث المشتهرة): 1/. 165.

13 – أُسْد الغابة: 4/ 16. والإصابة: 2/ 507.

14 – الاستيعاب: 3 / 1115.

15 – مناقب عليٍّ لابن المغازليّ: 351، ومناقب الأَسد الغالب عليّ بن أَبي طالب: 32.

16– تاريخ دمشق :42 / 38٥ / 8992. والبداية والنهاية: 7 / ٣٦٥.

17 – فضائل الصحابة لأَحمد بن حنبل: 566/2، ومسند أَبي يعلى الموصليّ: 377/1، والمعجم الكبير للطَّبرانيّ: 38/8، ومناقب عليّ لابن المغازليّ: 265.

18 – يُنظر: الإمبراطوريّة الخطابيّة (صناعة الخطابة والحِجاج):101– 102. ومحاضراتٌ في البلاغةِ الجديدةِ، ص26–27.

19 – المستدرك على الصَّحيحين: 34/3، وتاريخ بغداد: 546/14.

20 – ينظر: تاريخ دمشق: 42/ 78–97.

21 – تاريخ بغداد: 78/12.

22 – مسند الحميديّ: 182/1، ومسند أَحمد: 136/2، وسنن التِّرمذيّ: 643/5، وسنن النَّسائيّ: 115/8.

23 – يُنظر: محاضرات في البلاغة الجديدة: 83، 84.

24 – مرَّ تخريج الحديث.

25 – سنن الترمذي / 1 / 44، السنن الكبرى النسائي / 5 / 106، المستدرك على الصحيحين 3 / 121

26 – مسند أَحمد: 703/2، ومسند أَبي بكر الصِّديق للمروزيّ: 198.

27 – خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: 110/ ح 90.

28 – يُنظر: الإمبراطوريّة الخطابيّة (صناعة الخطابة والحِجاج)، ص102. ومحاضراتٌ في البلاغةِ الجديدةِ، ص28.

29 – فضائل الصَّحابة لأَحمد بن حنبل: 662/2.

30 – فضائل الصَّحابة لأَحمد بن حنبل: 662/2، والمعجم الأَوسط للطَّبرانيّ: 343/5، وتاريخ بغداد: 387/8.

31 – مرَّ تخريجه.

32 – مناقب عليٍّ لابن المغازليّ: 38، وتاريخ دمشق: 39/42.

33 – مصنف ابن أَبي شيبة: 368/6، وفضائل الصَّحابة لأَحمد بن حنبل: 586/2، وسنن ابن ماجه: 44/1، والمستدرك على الصَّحيحين: 120/3.

34 – تاريخ دمشق: 40/42.

35 – مرَّ تخريج الحديث.

36– يُنظر: الإمبراطوريّة الخطابيّة (صناعة الخطابة والحِجاج) :102. ومحاضراتٌ في البلاغةِ الجديدةِ:28.

37 – مرَّ تخريج الحديث.

38 – مناقب عليٍّ لابن المغازليّ: 170.

39 – معجم ابن الأَعرابيّ: 1079/3، وتاريخ دمشق: 359/42.

40 – يُنظر: الإمبراطوريّة الخطابيّة: 193، 195.

41 – يُنظر: في بلاغة الحجاج: 149.

42 – جمع الجوامع أو الجامع الكبير للسيوطي: 1112

43 – المستدرك على الصَّحيحين: 10/ 447.

المصادر والمراجع

– أُسْد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت: 630هـ) المحقق: علي محمد معوض – عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ – 1994 م.

– الأمالي، محمد بن الحسن بن علي الطوسي (ت: 460هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية – مؤسسة البعثة، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع – قم، ط1، 1414 هـ.

– الإمبراطوريّة الخطابيّة (صناعة الخطابة والحِجاج) شاييم بيرلمان، ترجمة وتقديم وتعليق: د. الحسين بنو هاشم، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2022م.

– البحر الزَّخَّار أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (ت: 292هـ) المحقق: محفوظ الرحمن زين الله، (حقق الأجزاء من 1 إلى 9)، وعادل بن سعد (حقّق الأجزاء من 10 إلى 17)، وصبري عبد الخالق الشافعي (حقق الجزء 18)، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، ط1، 1988م.

– تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت: 463هـ) المحقّق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط1، 1422هـ – 2002 م

– ترجمة الإمام علي من تاريخ مدينة دمشق، الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، المعروف بابن عساكر (ت:573هـ)، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، دار التعارف، بيروت– لبنان، ط1، 1395هـ–1975م.

– الحِجاج أُطرُهُ ومنطلقاتُهُ وتقنيّاته من خلال (مصنّف في لبِرلمان وتيتكاه الحِجاج)، عبد الله صولة، ضمن كتاب أهم نظريات الحِجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمّادي صمّود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانيّة، جامعة منوبة، تونس.

– سنن التِّرمذيِّ، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت: 279هـ) تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ 1، 2)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ 3)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ 4، 5)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط2، 1395 هـ - 1975 م.

– السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت: 303هـ) حققه وخرّج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدّمَ له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط1 1421 هـ - 2001 م.

– شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، الحافظ الكبير عبيد الله بن أحمد المعروف بالحاكم الحسكاني (ت: 481هـ)، تحقيق وتعليق: محمد باقر المحمودي، مجمع أحياء الثقافة الإسلامية، ط1، 1411هـ - 1990م.

– صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط1، 1422هـ.

– صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: 261هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، د.ت.

– فضائل الصحابة، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: 241هـ) المحقق: د. وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة – بيروت ط1، 1403 – 1983.

– محاضرات في البلاغة الجديدة، محمّد مشبال، دار الرافدين– لبنان، ط1، 2021م.

– المستدرك على الصَّحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه النيسابوري (ت: 405هـ) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1411هـ - 1990 م.

– مسند أَبي بكر الصِّديق، أبو بكر أحمد بن علي بن سعيد بن إبراهيم الأموي المروزي (المتوفى: 292هـ) المحقق: شعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي – بيروت. د.ت.

– مسند أَبي يعلى الموصليّ، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثُنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (ت: 307هـ) المحقق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث – دمشق الطبعة: الأولى، 1404 – 1984

– مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت 241هـ) المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة ط1، 1421 هـ – 2001 م.

– مسند الحميديّ أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله القرشي الأسدي الحميدي المكي (ت: 219هـ) حقق نصوصه وخرج أحاديثه: حسن سليم أسد الدَّارَانيّ الناشر: دار السقا، دمشق – سوريا، ط1، 1996.

– المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (ت: 235هـ) المحقق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد الرياض، ط1، 1409

– المصنّف، أبو بكر عبد الرزاق بن همّام الصنعانيّ، تحقيق: الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي للنشر، بيروت– لبنان، ط2، 1403هـ– 1983م.

–المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت 360هـ) تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط2، 1983.

– معجم ابن الأَعرابيّ، أبو سعيد بن الأعرابي أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم البصري الصوفي (ت: 340هـ) تحقيق وتخريج: عبد المحسن بن إبراهيم بن أحمد الحسيني، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1418 هـ – 1997 م.

– المناقب، الموفق بن محمد المكي الخوارزمي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم– إيران، ط5، 1425هـ– 2004م.

– مناقب الأَسد الغالب عليّ بن أَبي طالب شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (ت: 833هـ)، المحقق: طارق الطنطاوي، مكتبة القرآن، ط1، م1994

– مناقب الإمام علي بن أبي طالب، الحافظ أبو الحسن علي بن محمد الشافعي الشهير بابن المغازلي (ت: 483)، إعداد المكتب العالمي للبحوث، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت– لبنان. د. ط. ت.